

علامات اليقظة الروحية والتمييز بينها وبين الروحانيّة الحديثة

في مجالات "المعرفة والشعور والسلوك"

علامات اليقظة الروحية؛ من المعرفة إلى السلوك في الرؤية التوحيدية

في عصرنا الراهن لم يَعد الحديث عن اليقظة الروحية مقتصرًا على دوائر دينية أو نصوص تراثية. فقد امتدّ حضور هذا المفهوم إلى منصات التواصل الاجتماعي، والدورات النفسية الحديثة، وتيارات الروحانيّة الجديدة، حيث تُتداول مصطلحات من قبيل تنمية الوعي الداخلي، الطاقة الإيجابية، الكارما، أو تناغم الشاكرات. وقد يبدو لأول وهلة أنّ هذه المفاهيم تنسجم مع ما يطرحه التراث الإسلامي حول اليقظة الروحية، غير أنّ قليلاً من التأمل يكشف اختلافاً جذرياً في الأسس المعرفية والغايات الوجودية بين الطرفين.

فالروحانيّة الحديثة والمقاربات النفسية المعاصرة تقوم على مركزية [الإنسان](#)، وتُعرّف اليقظة الروحية بأنها ارتقاء في الوعي الفردي بهدف بلوغ السكينة النفسية، وتحقيق الرضا الداخلي، والتحكم في القلق. ويُنظر إلى الكون في هذه الرؤى بوصفه منظومة من طاقات وقوى ينبغي للإنسان أن ينسجم معها ليخرج من دائرة التوتر والمعاناة. وبهذا تُفسّر علامات اليقظة الروحية، وفق هذا الإطار، على أنّها تجارب ذهنية وحالات انفعالية ومشاعر داخلية مفعمة باللذة والارتياح.

أما في المنظور التوحيدي، فإنّ اليقظة الروحية ليست حالة ذهنية عابرة ولا مجرد سعي إلى شعور أفضل؛ بل هي إعادة اكتشاف لموقع الإنسان في نظام الوجود. فالإنسان المستيقظ لا يرى ذاته محور الكون، بل يعيد بناء علاقته بخالقه ويفهم الغاية من خلقه. وفي هذا الفهم تصبح السكينة والسعادة ليست هدفاً بحدّ ذاته، بل ثمرة طبيعية للمعرفة بالله والقرب منه. وهذه اليقظة تنقل الإنسان من التمرکز حول ذاته وشهواته إلى التوجه نحو الله، والسير في حياة تحمل قصداً وغاية.

تختلف علامات اليقظة الروحية في الرؤية التوحيدية اختلافاً جوهرياً عما تطرحه التيارات الروحانية الحديثة. ففي المدارس المستحدثة تُعدّ الأحلام الداخلية أو اللذات الانفعالية دليلاً على اليقظة، بينما تُفهم اليقظة الحقيقية في المنظور الإلهي بوصفها مساراً معرفياً وعاطفياً وسلوكياً متكاملًا، يُضيء العقل، ويحيي القلب، وينعكس في النهاية على السلوك. وهذا المسار، بخلاف ما تروّج له الروحانيات الجديدة،

لا يقوم على التجربة الذهنية أو الشعور الباطني وحدهما، بل يجعل من العقل والوحي جناحين لهداية الإنسان. واليقظة الروحية هي في حقيقتها عملية إعادة بناء داخلية وتحول في الأبعاد الثلاثة الأساسية للوجود الإنساني:

• **المعرفة والإدراك:** أي تكوين فهم صحيح لحقيقة الوجود ولموقع الإنسان فيه.

• **المشاعر والقلب:** أي حدوث تغيير في الدوافع والعواطف والميول الداخلية.

• **الإرادة والسلوك:** أي تجلّي آثار اليقظة في القرارات ونمط حياة الإنسان.

وسوف نتناول في الفقرات التالية، ووفق هذه الأبعاد الثلاثة، العلامات الدقيقة لليقظة الروحية في الفكر الإسلامي، مع بيان الفوارق بينها وبين ما يطرحه علم النفس والروحانيات الغربية.

علامات اليقظة الروحية في مجال المعرفة والإدراك

تبدأ اليقظة الروحية بتحوّل يصيب بُنية المعرفة ذاتها؛ فكلّ تغييرٍ ثابت في الشعور أو السلوك لا يمكن أن يتحقّق ما لم تتبدّل نظرتنا إلى العالم أولاً. فإذا بقي الإنسان يفسّر الوجود من خلال تجارب حسية ووقائع مشهودة فحسب، ظلّ إدراكه محدوداً وضيقاً. أمّا حين يكتشف أنّ الواقع أوسع من دائرة المحسوسات، وأنّ وراء ظاهر الأشياء حقيقةً أعمق وأبقى، عندها تتكوّن الشرارة الأولى من علامات اليقظة الروحية في باطنه.

وفي معظم مدارس علم النفس الحديث وتوجّهات الروحانيات الغربية المعاصرة، يُنظر إلى هذا التحوّل بوصفه اتساعاً في الوعي الداخلي أو تنميةً لقوى الذهن؛ بحيث يسعى الفرد إلى توسيع إدراكه عبر التركيز والمراقبة، طلباً للسكينة أو الشعور بالقوّة. غير أنّ اليقظة في الرؤية التوحيدية ليست توسعةً للوعي نحو الداخل، بل هي انفتاح العقل والقلب على حقيقة قائمة خارج الذات؛ حقيقة هي أصل النظام والتدبير في الكون، وهي ربوبية الله تعالى. وهذا الفارق جوهريّ في طبيعة التجربة ومقاصدها.

إنّ أوّل علامة من علامات اليقظة الروحية في بُعد المعرفة، هي [الإيمان بالغيب](#). فمادام الإنسان يحصر الحقيقة بما تراه الحواس، فإنّه يظلّ أسير سجن الدنيا الضيق. ولذلك يخصّ القرآن الكريم الهداية بمن آمنوا بالغيب؛^١ أي بمن استطاعوا رؤية ما يتجاوز ظاهر الأحداث. والإيمان بالغيب هو إدراك أنّ ما تلتقطه العين لا يمثّل الواقع بأكمله، وأنّ خلف الظواهر معنًى إلهياً ونظاماً محكماً يجري بتدبير حكيم. ومتى

^١ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ؛ سورة البقرة، الآيتان ٢ و ٣

ترسّخ هذا الإيمان في نفس الإنسان، انعتق فكره من التشبّت والقلق، واستعاد وحدته وسكينته؛ لأنّ الإنسان المستيقظ لا يرى العالم عبثاً ولا مصادفةً، بل يعتبره جزءاً من المشروع الإلهي الحكيم الذي يدبّر كل شيء.

ثاني علامة من علامات اليقظة في بُعد المعرفة، هي الإيمان بالآخرة والجنة والنار. فالإيمان بالغيب يوسّع أفق رؤيتنا إلى ما وراء العالم المادي، أمّا الإيمان بالآخرة يمنح الحياة اتجاهها الصحيح. فالإنسان المستيقظ لا يحصر وجوده في مدى الدنيا القصير، بل يراها مرحلة عابرة في مسار الخلود، وهو يؤمن بأنّ العدالة الإلهية ستتحقق في عالم أكمل وأتم. هذا الإيمان يضيف على الحياة معنى واتزاناً؛ إذ يجعلنا ندرك أنّ الألم ليس بلا ثمرة، وأنّ اللذة ليست غاية نهائية. ففي الشدائد نستمد السكينة من ذكر الجنة، وفي لحظات الفرح نبقي على تواضع بذكر النار. وهكذا تنشأ في اليقظة الروحية حالة توازن بين الرجاء والخوف، توازن لم تستطع علم النفس الحديث - بما حققه من تطور - أن يؤسس له قاعدة ثابتة. أما العلامة الثالثة فهي الصدق في طلب الحقيقة. فالإنسان المستيقظ يتنزّه عن خداع النفس وعن ليّ الحقائق وفق الهوى، ويقبل الحقيقة كما هي ولو كانت على حساب مصلحته. والصدق يعني الوفاء للحقيقة، لا اتباع المنفعة الشخصية أو رضا الناس. إنّ قدم الصدق يمثل ثباتاً أمام إغراء التبرير ورغبة إخفاء الواقع. في هذا المستوى ينتقل الإدراك من سطح الذهن إلى عمق الإيمان، فينسجم العقل والقلب في مسار واحد.

علامات اليقظة الروحية في بُعد الشعور والقلب

عندما تتكوّن المعرفة الصحيحة بحقيقة الوجود، يتحول قلب الإنسان تبعاً لذلك، وتظهر علامات اليقظة الروحية بوضوح في ساحة الشعور والقلب؛ حيث ينتقل الإيمان من مستوى الذهن إلى أعماق النفس. في كثير من التيارات الروحانية الحديثة ومذاهب علم النفس الإيجابي تُعدّ المشاعر الداخلية - كالإحساس بالخفة أو الهدوء أو التحرر من القلق - مقياساً للروحانية. في هذا المنظور يكون الهدف النهائي هو الوصول إلى حالة طيبة وإلى صفاء ذهني. أمّا في الرؤية التوحيدية، فإنّ هذه الأحاسيس - رغم قيمتها - ليست غاية في ذاتها، بل هي أثر من آثار ارتباط القلب بالله عزّ وجلّ.

وفي بُعد الشعور، تكون المحبة الإلهية أولى علامات اليقظة الروحية. فعندما تنفذ معرفة الله إلى أعماق الإنسان، يميل القلب تلقائياً إليه. وهذه المحبة ليست تعلّقاً عاطفياً عابراً ولا انقياداً أعمى، بل هي ارتباط واعٍ ينبع من الكمال والخير. فالإنسان المستيقظ لا يرى الله بعيداً، بل يشعر بحضوره الحي في كل شيء.

ومثل هذه المحبة تُحرّر القلب من أسر الأنانية ورغبات سطحية، وتنقله من التمرکز حول الذات إلى التوجه الخالص إلى الله.

ومن علامات اليقظة في هذا البعد أيضاً الأُنس بالعبادة. فالعبادة بالنسبة للقلب الغافل مجرد حركات وأذكار، أمّا للقلب المستيقظ فهي لحظة حضور واعٍ ومناجاة للمحبيب. وقد قال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): «قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^٢ وفي ذلك دلالة واضحة على أنّ العبادة للإنسان البصير ليست عبثاً، بل مصدر قوة وسكينة داخلية. هذه اللذة تنبع من المعرفة؛ لأنه يعلم من يخاطب، وأمام أيّ حقيقة يقف.

ومن تجلّيات اليقظة الروحية في ميدان الشعور، الرضا والسكينة أمام القضاء الإلهي. ففي علم النفس الحديث، يُنظر إلى القبول^٣ بوصفه وسيلةً للتكيّف وتخفيف حدّة القلق. أمّا في الرؤية التوحيدية، فالرضا ليس مجرد استجابة نفسية، بل هو بصيرة نافذة ترى الحكمة الإلهية متجلّية في كل ما يجري، حتى في قلب الشدائد وأعماق المصاعب. هذا المنظور نابع من الإيمان، وهو علامة جلية على يقظة القلب؛ لأنّ الإنسان المستيقظ يشعر في كل حال أنه في رعاية الإله الحكيم.

وهكذا تمثل المحبة الإلهية، والأُنس بالعبادة، والرضا بالعلامات الثلاث الأساسية ليقظة القلب. من استيقظ قلبه يمتلك سكينة داخلية لا تنشأ من البلادة أو الغفلة، ولا تعتمد على الظروف الخارجية، بل تستمد قوتها من الارتباط بحقيقة لا تزول. ويُمهّد القلب المستيقظ الطريق أمام يقظة الإرادة والسلوك، حيث يتحول الإيمان والشعور إلى اختيار وعمل.

علامات اليقظة الروحية في بُعد الإرادة والسلوك

تكتمل اليقظة الروحية عندما يظهر النضج الذي تحقّق في بُعدي المعرفة والشعور في سلوك الإنسان وقراراته. فاليقظة إذا بقيت حبيسة الذهن أو القلب لن تقود إلى نموّ حقيقي. وفي التيارات الروحانية الحديثة تُفهم اليقظة غالباً بوصفها حالة من شعور جيّد وسكينة فردية، حيث يسعى الفرد إلى تخفيف آلامه وتقليل صراعاته الداخلية. لكنّ الرؤية التوحيدية ترى أنّ اليقظة الروحية لا تتوقف عند حدود شعور جيّد، بل تمثّل بداية التحوّل في السلوك واتجاه الحياة. فالإنسان المستيقظ لا يفكر في تقليل معاناته فحسب، بل يدرك مسؤوليته أمام الله والناس والعالم.

^٢ . ابن بابويه، محمد بن علي، (المشهور بالصدوق): الخصال، ج ١، ص ١٨٣

^٣ . acceptance

إنَّ من أوائل دلائل اليقظة في هذا البُعد، التواضع. فالإنسانُ المستيقظ يُدرك أنَّ ما بين يديه من مالٍ أو قدرةٍ أو نجاح، ليس نابغاً من ذاته، بل هو فيضٌ من فضلِ الله تعالى. وهذا الإدراك يقيه مزلق الكبر والتعالي على الآخرين، ويهديه إلى تواضعٍ راسخٍ تنبثق جذوره من بصيرةٍ صادقة ورؤيةٍ واقعية. وفي مقابل ذلك، تميل بعضُ النزعات الفردانية إلى تفسير النموِّ الروحي على أنَّه تعظيمٌ مطلقٌ للثقة بالنفس، بينما ترى الرؤية التوحيدية أنَّ اليقظة الحقيقية هي معرفةُ الإنسان بمقامه بين يدي ربِّه، وما يثمر عن هذه المعرفة من تواضعٍ واعٍ، لا يعتريه ضعفٌ ولا ينقصه ثبات.

ثاني العلامات هي روح [الخدمة](#) وتحمل المسؤولية. فالإنسان المستيقظ لا يستطيع أن يقف متفرجاً أمام ألم الآخرين أو حاجاتهم. وهو يشعر بالواجب تجاه أسرته وبيئته ومجتمعه، لأنه يرى الحياة ميداناً للاختبار وفرصةً للنمو. ففي التصور المادي يكون النجاح هو بلوغ المنافع الشخصية، أما في التصور الإلهي فالنجاح يعني نفع الآخرين والعمل الصالح. وتبقى الخدمة الصادقة واحدة من أوضح علامات اليقظة الروحية في السلوك.

أما العلامة الثالثة فهي الاستقامة على طريق الحق. فلا معنى لليقظة الحقيقية ما لم يثبت الإنسان في أوقات الشدة والابتلاء ووسط الإغراءات. والاستقامة تعني التمسك بالحق حتى مع الألم والشدة، وحتى حين لا يبدو هناك مكسب ظاهر. وعلى خلاف الروحانيات الجديدة التي تركّز على الراحة النفسية اللحظية، تولي الرؤية التوحيدية أهميةً بالغةً للاستقامة؛ لأن المقصود ليس الهدوء العابر، بل القرب من الله.

هذه العلامات الثلاث - التواضع، الخدمة، والاستقامة - تجتمع لتُظهر كيف تنتقل اليقظة من الداخل إلى الخارج. فالإنسان المستيقظ يعرف الحقيقة، ويطمئن قلبه، وتنعكس حالته في سلوكه. فهو لا يهرب من الدنيا ولا يذوب فيها، بل يعيش فيها دون أن يتعلّق بها، ويجعل غايته أوسع من حدودها. وهذا هو معنى [الحياة الطيبة](#)^٤: حياة واعية ونقية تتحد فيها بصيرة العقل وصفاء القلب واستقامة العمل في طريق الحق. وهو أتمّ مظهر لليقظة الروحية.

٤ . من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنُخَيِّطَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً؛ سورة النحل، الآية ٩٧

إنّ تتبّع علامات اليقظة الروحية في الرؤية التوحيدية يكشف أنها ليست حالة ذهنية عابرة ولا تجربة عاطفية فحسب، بل مسار شامل يجري في جميع أبعاد الوجود الإنساني. ففي كثير من مدارس علم النفس الحديث والروحانيات المستحدثة يُنظر إلى اليقظة باعتبارها غايةً تُختصر في بلوغ السكينة الداخلية. أمّا في الرؤية التوحيدية فالسكينة هي ثمرة المسار وليست هدفه. والغاية في هذا المنظور هي القرب الإلهي والارتباط الواعي والحرّ بالحقيقة المطلقة.

واليقظة الروحية الحقيقية هي عودة الإنسان إلى جوهره؛ أن يعرف من أين جاء، ولماذا خُلِق، وكيف يمكنه أن يقترب من الكمال في كل لحظة. ومثل هذا الإنسان يجمع بين قلب مطمئن وعقل نير وسلوك مسؤول.

أيّ علاماتٍ لليقظة الروحية تعرفها أنت؟ وهل شعرت في حياتك بآثار هذا النوع من الصحوة في الفكر أو الشعور أو السلوك؟ ثمّ كيف ترى الفارق بين اليقظة الروحية في المنظور المادي الذي يحصر الإنسان في حدود الدنيا، وبين الرؤية التوحيدية التي تربط اليقظة بمصدر الحقيقة ومعنى الوجود؟